

## من عجائب التوفيق

### الشيخ الدكتور محمد ياسر القضماني

إن كان من كلام العرب القديم: **عش رجياً تر عجباً** ؛ فإن من عجائب ما وقعت عليه منذ ليال ما حدثني أحد الأفاضل عن واحد من المسرفين على أنفسهم يتأبى عن الشعائر، وينتهك الحُرْم ؛ يُكرم في ساعة قدسية فتصبح الحال مرضية، والنفس مرعية!

يا لله ! ما أعجب شؤونك في خلقك !؟

ما قصة هذا الموفق !؟

ألا تأسرك قصة رجلٍ بلغ به التفحُّش والجرأة على مقام ربه وجبروته، أن قال - وهو في غاية القطيعة والبعد - : لو جاؤوا بالكعبة إليّ لَمَا جئتها !؟

لو جاؤوا بالكعبة إليّ، ما جئتها !؟ مَنْ أنت يا هذا !؟

أبلغ بالعبد صفاقةً حجابيه إلى أن يقول هذا !؟

نعم ! يحدثك التاريخ عن عجائب في هذا ممن ينتقل من غاية البعد إلى غاية القرب، ومن ضنك الشقاء إلى أنس السعادة، ومن ظلمات الشكِّ والرَّيب إلى نور اليقين وارتفاع الرُّتب !  
نعم لله في خلقه شؤون !

تعال يا من يداخله اليأس من رجوع هذا إلى الجادَّة، أو أوبة ذاك المتجرئ، أو توبة ذلك العنيد الجبَّار الموجل في الرِّزايا والخطايا - اسمع قصة صاحبنا هذا !

من شخص ينضح إناءه بـ : لو جاؤوا بالكعبة إليّ لما جئتها !؟ إلى رجل صار من أوائل من يغدو إلى المسجد عامراً له !!

يقول الفاضل محدثي بالقصة:

يشاء الله تعالى أن يلجأ هذا الإنسان الغافل إلى أن يوافق على السفر إلى بيت الله الحرام ؛ ليكون محرماً لإحدى قريباته، وقد استجاب على أن يكون له ما يريد ؛ وسيتمتع بهذه الرحلة، وسيكون له التُّزلُّ الطيب، والطعام الشهي، والمركب كذا، والفرش كذا !

ويذهب وَهْمُ الإنسان في الجمع بين حظوظه وشهواته في عمل من أعمال الآخرة إلى مبلغ عجيب، يُزَيِّن له حتى يذهَلَ فيه عن المراد ، ولكنه إن خفي على العباد فلا يخفى على رب العباد؟!!

\*\*\*\*

**ولكن مراد الله فوق كل مراد ، ومشيتته فوق كل مشيئة !**

تعال أنتِ شفتها رحلةً نزهةً ومتعةً تنعشُ فيها بعض شهواتك، تعال أردتها متعةً للجسد ، وأنا أردتها عودةً للواحد الأحد !

وإن قيل ما واسطة العقد في جواهر هذه الأوبة، ولآلى هذه التوبة لقال لك: ذاك المقام الأول الأقدس الغالي الذي ساقني الله إليه، وأقامني فيه تجاه الكعبة المشرفة !  
وقفتُ ويا لروعة هذا الوقوف ! وشاهدتُ ويا لروعة ذلك المشهد، أي بنية هذا البناء؟! وأي ضياء ذاك الضياء؟!!

**زُججتُ في النور !**

غاب عني أي شعور، وعُصتُ في بحورٍ وبحورٍ من الحبور بما لا أقدر أن أقرُّ به، أو أنعته، أو آتي على شيءٍ من جلاله أو جماله !  
كنتُ في مقامٍ جليلٍ تلاشى في جنبه كل ما كان يشغلني وينأى بي عن ربي، وجميلٍ أذهلني فرطُ جماله عن كل محبوب !

استشعرتُ كلَّ تفريطي في جنب هذا الكريم الذي ساقني إلى بيته، وجعلني من وفده، فانتابني حياء كاد يذييني وربِّ هذا البيت !

خلته ينشلي من تذكر هذه الخطايا والسيئات، وكأنه يقول لي: ما جئتُ بك إلى هنا، وما دعوتك لأقرِّعك وأخجلك، دعوتك لأكرمك، ولأتحفك وأهديك !

وكأني حدثته: أنا مع هذا التفريط أهلٌ للإحسان والتكريم، وكأني أسمعُه يقول: أنا أهل التقوى وأهل المغفرة!!

ههنا ما عدتُ أحتمل التجلِّد فاقشعر جلدي فبكيت وبكيت، وما عدتُ أشعر بما حولي، ما دروا سبباً لبكائي، ولكن حسبي أنه يعلم مكاني، ويسمع كلامي.

امتزج دمعي من الحسرة على ما فات ، والحياء مما فرط، ومن الفرح أيضاً بهذا الإكرام ، وجميل  
الإنعام ، ومن جرائتي عليه وحلمه عني !!

\*\*\*\*\*

### وكيف عدت حينما عدت ؟!

أنتم تعرفون حال ولدٍ كان شاردًا مسيئًا، وعاقًا متفحشًا، استغضبَ والده المحسن له، المحب العطوف،  
ثم كان الجفاء، ثم تمادى فحرم اللقاء، ثم عدت على هذا الولد أسوء القطيعة والوحشة، وأدناس الرذائل،  
والخطايا الجلائل إلى أن ساق الله إليه من أصلح بينه وبين والده، وصقّى ما تعكر ففوجئ الولد العاق  
بدعوة والده أن تعال عفوئُ عنك !

قولوا هل تقدروا على وصف دخول هذا العاق دار والده المحسن ؟!

\*\*\*\*\*

يقول محدثي عن قصة صاحبنا: صار بفضل الله من أوائل من يعمر المسجد للصلاة، نعم لا عجب  
في ذلك فقد كانت تلك الوقفة أمام القبلة هي سبب القرب، فهل من المروءة التعامي عن هذا  
الإحسان، وسائق كل إيمان ؟!

